

اسم المقال: العلامة والرواية دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي
اسم الكاتب: محمد مصطفى كلاب
رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/8913>
تاريخ الاسترداد: 2026/04/11 13:14 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلم
الإنسانية
والاجتماعية



المجلد 13 ، العدد 2

ربيع الأول 1437 هـ / ديسمبر 2016 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339





العلامة والرواية:

دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي

محمد مصطفى كلاب

كلية الآداب - الجامعة الإسلامية (غزة)

غزة - فلسطين

تاريخ القبول 2016-04-26

تاريخ الاستلام 2015-12-27

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى دراسة العلامة في رواية (ستائر العتمة) دراسة سيميائية، للوقوف على طبيعة توظيف الكاتب للعلامات، والكشف عن دورها في تشكيل الفضاء الروائي، ومعرفة مدى قدرة الكاتب على استثمار العلامات السيميائية في إنتاج خطاب روائي، قادر على التعبير عن تجاربه، وإحداث مؤثرات دلالية، وجمالية تزيد من انفتاح النص على فضاءات تأويلية واسعة.

وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، لدراسة الفضاء السيميائي للعلامة في رواية: (ستائر العتمة)، من خلال الحديث عن: مفهوم العلامة، والعلامة الزمانية، والعلامة المكانية، والعلامة الجسدية.

الكلمات الدالة: العلامة، السيميائية، الزمان، المكان، لغة الجسد، الهودلي.





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودي (139-159)

مقدمة:

تتناول رواية (ستائر العتمة) جانباً من معاناة شاب فلسطيني، اعتقل بتهمة المشاركة في الانتفاضة، وتسرد - على لسان البطل عامر - ما تعرض له الكاتب وليد الهودي من مواجهات ملتجة في زنازين الاحتلال الصهيوني، ومكاتب التحقيق، استمرت لمدة تسعين يوماً، شاء الكاتب من خلالها أن يبيلور الأبعاد المختلفة لآلامه وآماله، وأن يستعرض أساليب التعذيب المستخدمة في سجون الاحتلال الصهيوني، ويكشف قوة صموده في وجهها، وانتصاره على السجن والسجان.

يمتد تاريخ العلامة إلى ماضٍ بعيد، يرتبط ببدايات العلاقات البشرية، التي حاولت استثمار العلامات غير اللسانية- قبل اختراع الكتابة، للتواصل فيما بينها، ومحاولة التعبير عن أفكارها، وأحاسيسها، وانفعالاتها، وذلك عن طريق مطابقة دال الشيء على مدلوله، والمماثلة بين الاسم والشيء، أو الصورة والشيء. (ينظر، علي، 1996:27).

وتمثل العلامة نسقاً ثقافياً منتجاً للمعنى، محققاً للمسار التواصل، كونها تنطوي على حمولات ثقافية، قادرة على التوالد المعرفي، مرتبطة ارتباطاً قوياً بوجهي العلامة: الدال والمدلول، وتتعداهما في أحيان كثيرة إلى مرجعيات خارجية، متجاوزة بذلك المرجعيات المعجمية التداولية، إلى أفاق إيحائية واسعة الدلالة، متعددة المعاني.

ولا تقتصر سيميائية التواصل رؤيتها لأنظمة العلامات على الدال والمدلول، بل تتجاوز ذلك إلى البحث عن وجود القصد التواصل، الذي يعزز من قوة العلامة، ويزيد من قدراتها التواصلية، وتشمل الطبيعة التواصلية للعلامة: العلامة اللسانية، وغير اللسانية، لذلك يمكن دراسة أنظمة العلامات على أنها طرق للتواصل، ووسائل للتأثير في المتلقي المعترف بها. (ينظر، مبارك، 1987:72، كذلك داسكال، 1987:39).

ومن الجدير بالذكر أن قدماء الصين، والهند، والرومان، واليونان، والعرب استثمروا المفهوم السيميائي، وتنبهوا إلى فاعلية العلامة، والإشارة في تفسير مكونات العمل، وفهم أنظمة التواصل اللغوية وغير اللغوية، فهذا (أرسطو) يعرف العلامة بقوله: «إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالة نفسية، والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت، وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين، فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى، ولكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع، كما تكون الأشياء التي تمثلها هذه الحالات أيضاً متطابقة» (حمودة، 1978:225).

ولم يتوقف استثمار القدماء للمفهوم السيميائي عند تعريف أرسطو للعلامة، بل تعداه إلى عنايتهم بالإشارة، وعدوها ذات أهمية أساسية في فهم النص، واستكناه المعاني الخفية،





محمد مصطفى كلاب (159-139)

والمسكوت عنه، كونها شريكاً للألفاظ، وفي هذا يقول الجاحظ: «الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط» (الجاحظ، 2008:57).

والسيما لفظ عربي أصيل مأخوذ من «سَوَمَ» وهي العلامة التي يعرف بها الخير من الشر، وسَوَمَ الفرس أي جعل عليها السيمة» (الأزهري، 1964: 3/112).

وقد جاء في التنزيل الحكيم {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} (الفتح:29)، والسيما هنا هي العلامة الناجمة عن تكرار السجود في الصلاة.

وجاء ذكر السيماء في الشعر العربي في أكثر من موضع شعري، نذكر منها قول ابن عبدربه الأندلسي: (الأندلسي، 1979: 66)

على وجهه سيما المكارم والعللا فضاءت به الآمال وابتهج الشعر

و هذا يبرز قدم معرفة العرب بالسيما التي هي علامة يعرف بها الخير من الشر.

والعلامة التي يعنى بها الدرس السيميائي قد توجد «في شكل وحدة لغوية مفردة هي الكلمة، وقد توجد داخل نسق كلي مصغر هو الجملة، وقد توجد على شكل نص، أو نسق أكبر، ينظم عدداً من الوحدات الصغرى، داخل عدد من الأنساق الصغرى، وهو النص ... لكن العلامة قد لا تكون في شكل لغة فقط، فقد تكون صوتاً موسيقياً (أو لحناً كاملاً يعادل النص اللغوي)، وقد تكون لوناً أو مجموعة ألوان في شكل لوحة، وقد تكون أي وحدة أخرى تستخدم لتوصيل دلالة» (حمودة، 1978:265-264).

وقد ارتبطت العلامة تاريخياً بالمنهج السيميائي، وبمرجعياته المتباينة، واتجاهاته المتنوعة، سواء كان الاتجاه الفرنسي مع (فردينا نددى سوسير)، الذي ينظر إلى العلامة على أنها تتكون من: دال وهو الصورة على اختلاف مرجعياتها، ومدلول وهو المفهوم. وللعلامة اللغوية لدى (دي سوسير) طبيعتان جوهريتان، الأولى: الطبيعة الاعتباطية للعلامة، ويعني ذلك: عدم وجود علاقة طبيعية، تجمع بين الدال والمدلول، وعدم خضوع هذه العلاقة لقوانين منطقية، وقد أحدثت مبدأ اعتباطية العلامة تحولاً كبيراً في الدراسات اللغوية. والثانية: الطبيعة الخطية للدال، بما أن الدال ذو طبيعة سمعية، فإنه يجري في الزمن وحده، وله خصائص يقتبسها من الزمن، فهو يمثل امتداداً للزمن، ويقاس هذا الامتداد ببعد واحد، هو البعد الخطي، بواسطة علامات الكتابة. (ينظر، دي سوسير، 1985:115-111).

وكذلك ارتبطت العلامة بالاتجاه الأمريكي مع (تشارلز بيرس)، الذي يرى أن العلامة قد تكون لغوية، أو غير لغوية، وميَّز بين ثلاثة أنماط للعلامة هي: العلامة الأيقونية،





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودي (139-159)

والعلامة الإشارية، والعلامة الرمزية. وتكون العلاقة بين الدال والمدلول في العلامة الأيقونية علاقة تشابه وتمائل، مثل: الخرائط، والصور الفوتوغرافية، والأوراق المطبوعة التي تحيل على مواضيعها مباشرة، بواسطة المشابهة، بينما في العلامة الإشارية تكون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة سببية منطقية، مثل: ارتباط الدخان بالنار، أما في العلامة الرمزية فالعلاقة بين الدال والمدلول، تكون علاقة اعتباطية عرفية غير معللة. (ينظر، فضل، 2005:85، كذلك، السمرى، 2010:198).

وإن تنوع مرجعيات السيميائية، وتعدد اتجاهاتها، وقُر للدارس مساحة واسعة للتعامل مع النص، لاهتمام السيميائية وعنايتها بشكل النص ومضمونه، ودراسته ضمن منظومة إجرائية عملية، لا تفصل بين الشكل والمضمون، إلا في حدود الدرس النقدي، مما جعل عملية البحث عن الطاقات الدلالية - من خلال منظومة العلامات - عملية مزدوجة تعنى بشكل النص، ومضمونه.

ويهدف البحث إلى دراسة العلامة في رواية: (ستائر العتمة)، دراسة سيميائية للكشف عن فاعليتها الدلالية، وأفاقها الجمالية، والوقوف على مستوياتها الإجرائية، وطبيعتها التعبيرية، وطاقاتها الإيحائية.

وإن اهتمامي بالوقوف على الثراء الدلالي، والجمالي، لفاعلية العلامة السيميائية، كان دافعاً وراء اختياري دراسة العلامة السيميائية، للوقوف على أهميتها في المنجز الروائي، ومعرفة قدراتها في تعميق أفق النص الدلالي، وتوسيع فضائه الإيحائي، وإدراك فاعليتها التأثيرية. ووقع اختياري على رواية ستائر العتمة، لسببين: الأول: كثرة العلامات السيميائية المستثمرة في ألفاظها، وتراكيبها، وصورها. والثاني: عدم وجود دراسات - في حدود علمي - تعنى بالعلامة السيميائية في رواية ستائر العتمة.

وقد تعددت الدراسات السابقة التي تناولت موضوع العلامة السيميائية، وجمعت بين النظرية والتطبيق، نذكر منها: دراسة أعدها عزوز علي إسماعيل، (2013) موسومة بـ (عتبات النص في الرواية العربية، دراسة سيميولوجية سردية)، تناول فيها دراسة العتبات النصية، في نماذج من الروايات العربية. ودراسة أعدها رشيد بن مالك، (2012)، موسومة بـ (السيميائيات السردية)، التي تحدث فيها عن مفهوم السيمياء، وتناول نماذج من الروايات العربية. ودراسة أعدها فيصل النعيمي، (2010)، موسومة بـ (العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد)، تحدث فيها عن أنظمة العلامات في ثلاثية عبد الرحمن منيف. ودراسة أعدها سعيد بنكراد، (2003)، موسومة بـ (سيميولوجية الشخصيات السردية)، خصصها لدراسة سيميولوجية الشخصيات في رواية الشراع والعاصفة لحنا مينه.





محمد مصطفى كلاب (139-159)

وتتميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة في كونها تسلط الضوء على علامات سيميائية مهمة في رواية من روايات الأسرى الفلسطينيين داخل سجون الاحتلال الصهيوني، لم تأخذ حقها من الدراسة السيميائية، مما أتاح أمام هذه الدراسة إمكانية الكشف عن علامات سيميائية جديدة في أدب الحركة الأسيرة في فلسطين، مكنت المتلقي من الوقوف على علامات زمانية، ومكانية، وجسدية، تتسم بعمق الدلالة، وقوة الإيحاء.

وإن المتأمل في رواية: (ستائر العتمة)، يلمس الحضور الفاعل للعلامات السيميائية، ويدرك أهميتها في تشكيل الفضاء الروائي. وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الفضاء الإيحائي للعلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة)، من خلال دراسة: العلامة الزمانية، والعلامة المكانية، والعلامة الجسدية.

أولاً: العلامة الزمانية:

أول ما يلفت النظر في رواية: (ستائر العتمة) عنوانها الذي يفصح – منذ البداية- عن زمانية الرواية، وتبدأ العلامة الزمانية – من العنوان- بإرسال ومضاتها السيميائية، التي تقود المتلقي نحو دلالة استباقية، توحى بسير الرواية صوب سيمياء الزمن، الذي يتحرك بكثافة في ثنايا النص الروائي، ويسهم بعمق في توجيه حركة السرد، ويمنح المتلقي مثيرات سيميائية تمكنه من استثمار فاعلية الاسترجاع، والاستباق، من أجل الكشف عن آلام الشخص، وآمالها.

وتمثل العلامة الزمانية حيزاً مهماً في رواية: (ستائر العتمة)، ونشعر بأهميتها من عنوان الرواية، الذي اشتمل على علامة زمانية، وهي: (العتمة) التي يستشعر المتلقي من خلالها، بإحساس الكاتب بثقل الزمن المرتبط ارتباطاً قوياً بالمقاومة الفلسطينية، داخل السجون الصهيونية، والملتصق بجميع لحظات حياة السجين، فكل حركة من حركاته، أو سكونه من سكوناته، لها ارتباط بالزمن ومتغيراته.

ويمكن معرفة العلامات الزمانية للرواية، من خلال الوقوف على المكونات الثقافية للشخصيات، ومعرفة لغتها، وعاداتها، وتقاليدها، فالعلامة الزمانية ركيزة أساسية في جوهر المعرفة الإنسانية، لارتباطها بثقافة الإنسان وخبراته، (ينظر، أيوب، 2001:37)، والفنون نتاج بشري، تتداخل فيها الثقافات والخبرات الإنسانية، والزمن يرتبط بالفنون ارتباطاً وثيقاً، (ينظر، مندولا، 1997:17)، والرواية ما هي إلا «تركيبية معقدة من قيم الزمن» (مندولا، 1997:75)، وبما أن اللغة- التي تتشكل منها فنون السرد- عبارة عن أفعال متتالية في حيز زمني، والخطاب الروائي تتحقق كينونته الفنية عن طريق اللغة، التي تعبر عن العلامات الزمانية للنص السردية. (ينظر، وورد، 1999:13).





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودي (139-159)

إن الإحساس بالعلامات الزمانية في الخطاب الروائي، لا يتشكل وفق التعاقب الزمني، بل وفق الحالات الوجدانية، التي تحمل دلالات خاصة في حياة الشخصية، (ينظر، هينكل، 1995:28)، أو وفق المعيار الداخلي السيكولوجي، الذي تقدر فيه العلامات الزمانية بصورة فردية ذاتية، دون أي معيار موضوعي، (ينظر، مندولا، 1997:137)، وهذا دفع غاستون باشلار إلى التمييز بين زمن الأنا (النفسي)، وبين زمن العالم، «فنارة يبدو زمن الأنا: يمضي بسرعة أكبر من سرعة زمن العالم، الأمر الذي يجعلنا نشعر بأن الزمن يمر بسرعة، وأن الحياة تضحك لنا، وأنا نشعر بالغبطة، وتارة تتعكس الآية، فيبدو زمن الأنا متأخراً عن زمن العالم». (باشلار، 1988:115-114).

والعلامة الزمانية ذات الأبعاد النفسية: لا ينتظم فيها الحدث حسب وقوعه زمانياً، بل حسب إحساس الشخص به، ومن هنا: تتيح سيمياء الزمن النفسي للشخص أن تثبت انفعالاتها، وتعبّر عن مواقفها الوجدانية، ليس كما هو متداول ومألوف، بل بطريقة تتناسب مع الحالة الانفعالية، لذا جاءت تعبيرات عامر عن العلامات الزمانية، في لحظات التحقيق مشتتة، ولا يربطها إلا الرابط الانفعالي.

وتتعلق العلامة الزمانية النفسية داخل رواية: (ستائر العتمة) بشخصيات الرواية، وهو زمن ذاتي يعبر عن انفعالات الشخص وعواطفهم، وينظر إليه وفق رؤيتهم الذاتية، التي تعتمد إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير، في لحظات الانتصار، (ينظر، مرتاض، 1998:205)، والزمن القصير إلى طويل في لحظات التحقيق.

ويستقي الكاتب علاماته الزمانية من واقع الاعتقال، ثم يعيد صياغتها ضمن أنساق سيميائية، موحية بطبيعة زمن الاعتقال، والتحقيق الذي أضفى عليه الكاتب صفات الطول، والثقل، والسواد، والبطء، وذلك من خلال وصفه الزمن خلف القضبان بأنه: «ساعات وأيام تجر ذيولها ببطء شديد، ثقيلة كالجبال، شاقة كقطع الصخر، أليمة كمن دهمته أزمة حادة، استقرت في أعماق صدره»، (الهودي، 2003:92)، وهذا الوصف للعلامات الزمانية وصف سيميائي، ابتعد فيه الكاتب عن النقل الحرفي للعلامات الزمانية، وتجاوز مألوفيتها الدلالية، وأدخلها في مدارات إيحائية متعددة، توحى بعمق معاناته تحت أساليب التحقيق المادية والمعنوية.

ويتداخل الزمان مع المكان تداخلاً واضحاً في بداية الرواية، التي تبرز عملية رصد الهدف زمانياً ومكانياً، من قبل عناصر الخلية البطولية، وذلك عندما «أصبحت السيارة المرصودة في دائرة الهدف.. تهيأت الظروف على أكمل وجه.. تماماً كما هو مرسوم.. أرخى الليل ستائره السوداء.. اختفى من الوجود كل شيء.. لم يكن هناك شاهد إلا الله.. اختفى البشر، والشجر، والحجر، في ظلمة هذا الليل البهيم.. الصمت المطبق، لا ينال





محمد مصطفى كلاب (139-159)

منه شيئاً سوى زفير سيارتين، وأنفاسنا المتلاحقة، وطرقات القلوب يعلو وجيبها. وبعد عدة منعطفات على طريق نابلس- رام الله، بسطت لنا الطريق نفسها... أصبح التجاوز ممكناً... أخرجنا فوهات بنادقنا من النواذف... بندقية أطلت برأسها من نافذة المقعد المجاور للسائق... والثانية من النافذة الخلفية». (الهودلي، 2003:7).

اختار الكاتب زمن تنفيذ العملية البطولية قبل الفجر، ليعمق من خلاله مدى الحرص على نجاح العملية، وقد أسهم استثمار العلامات السيميائية في تعزيز هذا الحرص، سواء كان سواد الليل، وظلمته التي اختفى خلفها أفراد المجموعة، أو الصمت المطبق الذي حقق الهدوء لكل شيء، ما عدا سماع زفير السيارتين، والأنفاس المتلاحقة لركابها، مما هياً الوقت المناسب لإخراج فوهات البنادق من النواذف، وتصويبها تجاه الهدف. ويمثل تصوير المشهد السابق فضاء خصباً للامتدادات الزمانية والمكانية، وكشفاً للتفاعل السيميائي بين زمان الحدث ومكانه، وشخصه، وإبرازاً للفضاء السيميائي في ذهن المتلقي، والذي يتشكل بتعدد الأزمنة، وتباين الأمكنة، التي لا يستغرق الكاتب في وصف كل تفاصيلهما بدقة، بل يعتمد إلى التكتيف، والتركي، تاركاً أشياء كثيرة لخيال المتلقي، لإدراكها، محققاً بذلك رغبته في الإثارة، والتشويق، والإمتاع، والتخييل.

إن التلاعب بالأنساق الزمانية الثلاثة، واعتماد الحاضر نقطة انطلاق نحو المستقبل، ومن ثم العودة إلى الماضي، لتتوير المتلقي بأنها عملية ناجحة ومباركة. ونجاحها جاء نتيجة الخبرات الأمنية التي حفظها قائد العملية (عامر) في حبسته الأولى، التي قضى فيها خمس سنوات خلف قضبان سجون الاحتلال، ولكنه يتساءل عن الخلل الذي أوقعه، وأفراد مجموعته في الاعتقال، ويتمنى أن يكون الاعتقال خمس سنوات، وليس المؤبد، (ينظر، الهودلي، 2003:8-9)، ويحمل هذا التداخل للعلامات الزمانية في طياته إشارات سيميائية، فالماضي لدى عامر خبرات أمنية، اكتسبها من تجربة اعتقالية سابقة، أثرت في إنجاح العملية البطولية، وستؤثر في تغلبه على أساليب التحقيق.

إن جميع العلامات الزمانية، التي عرضها عامر عن تجربته الاعتقالية الأولى، هي عبارة عن مشاهد تلخيصية مونولوجية، تتمثل في قوله: «أين ذهبت الخبرات الأمنية التي حفظتها في حبستي الطويلة عن ظهر قلب؟ (...). أن تعود رحلة الأسر والقيود مرة أخرى، إنها طامة كبرى لم أكن أقدرها حق قدرها، بداية الحبسة الأولى... أما وقد عدت خمس سنوات وراء القضبان، بكل ساعاتها ودقائقها، وقد كنت أحسب نفسي أحدهم، أو من أعلاهم شأنًا... ماذا أقول لأملك التي حقيت قدامها، وهي تطارد عليك من سجن إلى آخر؟ ماذا تقول لزوجتك؟ لإخوتك، لإخوانك؟»، (الهودلي، 2003:8-9)، ويعمل التلخيص المونولوجي على تقديم المشاهد، والربط بينها، بل إنه يزيد من سرعة السرد، بشكل يتناسب مع طبيعة تسلسل الأحداث، والتساؤلات المتعددة التي طرحها عامر على نفسه:





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي (139-159)

حول كيفية وصوله هو وأفراد مجموعته إلى المعتقل.

ومن العلامات الزمانية التي استثمرها الكاتب في خطابه السردي: العلامة الاسترجاعية التي يتذكر فيها عامر ما حصل لأمه، وزوجته، وابنه، «إنها صورة لا أستطيع تصورها، أن أرى أمي، وزوجتي ثانية، تتقاسمان وجهي، الذي يرسم الحديد عليه مربعاته، أن أشهد ولدي، الذي حوشته بعد خمس سنوات، وهو يكبر ويشب، وأنا لا ألمس فيه إلا أصابعه الصغيرة، وهو يدسها في ثقب شبك الزيارة، يا للفظاعة!! تعود سيرتك الأولى يا عامر، كأنك لم تخلق إلا للسجون، يا الله، عونك ربي على أن لا أتصور شبح هذه الصورة اللثيمة، صورة السجن والسجان، كل هذا يترتب على صمودك هنا»، (الهودلي، 2003:10-9)، فالاسترجاع مرتبط بالتخييص، والمشاهد، والتأملات، التي توحى بالرؤى الاستشرافية لمستقبل عامر في التحقيق، وتضع المتلقي أمام مفارقة زمنية، تعتمد نمط: «استباق على استذكار». (جينيت، 1997:85).

وقد استثمر الكاتب العلامة الاسترجاعية للمشاهد الدلالية، بغية تضليل المحققين، الذين وضعوا عامراً ونبيلاً في زنزانة واحدة، تحت المراقبة السرية، من خلال أجهزة التنصت، واستطاع عامر بخبرته إدراك ذلك، وتفهم نبيل الأمر، فأخذ يسترجع استرجاعاً داخلياً، من خلال الحوار الداخلي عن ذكريات الحياة الجامعية، وما بها من دراسة، ولهو، ولعب، وحركة، ونشاط، وحب، وقصص عاطفية. وراح عامر يسترجع ذكرياته مع طفله، وأسهب في الحديث عن ضحكه، ولعبه، ونوادره. وكان المحقق (إيلان)، وطاقم التحقيق، يستمعون لهذا الحديث الاسترجاعي، من خلال سماعة (الانتركم)، بصحبة مسجل يسجل الكلام بكل حذافيره، وكانت صدور المحققين تتلظى غضباً، كلما استرجع عامر ونبيلاً موضوعاً من المواضيع البعيدة عن أهداف المحققين. (ينظر، الهودلي، 2003:91-90).

وكذلك وظف عامر العلامة الاسترجاعية الداخلية، عند حديثه عن لقاء الشاب الأشعث الأغبى، الذي دُفع داخل زنزانة عامر، حيث بدا على الشاب آثار التعذيب، فاسترجع معه عامر تجربة العصفير في مدة اعتقاله السابقة، وكيف كانوا يجيدون فن التمثيل ببراعة، وكيف استغلوا تدين عامر، ومثلوا عليه التدين والتقوى تمثيلاً في غاية الإلتقان، وكيف صدقهم عامر، ودفع ثمن ذلك في حبسته الأولى؟! (ينظر، الهودلي، 2003:20).

أما العلامة الاسترجاعية الخارجية التي تتم خارج زمن الحكاية، وتتمثل في استحضار عامر لموقف النبي- صلى الله عليه وسلم- وصاحبه أبي بكر، وهما في غار جبل ثور، والمشركون يقفون على باب الغار. وكلما اشتدت الغمة على عامر ضاعف إقباله على الله، واستدعى قول النبي- صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما» (البخاري، 1422 هـ: مج5، ص4)، «ويترنم عامر: ما ظنك بواحد، الله صاحبه..





محمد مصطفى كلاب (139-159)

الله وليه.. الله حافظه.. الله قريب منه، مجيب له.. الله معه، بكل ما تحمله من طلاقة القدرة، والرحمة، والحكمة». (الهودلي، 2003:99).

كما استحضر عامر شخصية بلال بن رباح، وصبره على المحن، بقوله: «أحمد الله، كلما اشتد ضغطهم عليّ، اشتد إقبالي على الله، أخرج من مكنونات قلبي الإيمان، وأوجه شرائعي إلى أرحم الراحمين، سرعان ما أعود بالثبات، وبرد اليقين، وطمأنينة الإيمان، إنها «أحدٌ، أحدٌ» (البستي، 1993: مج15، ص558) الخالدة، وصيحة بلال- رضي الله عنه- التي تفتت كل الصخور، التي تلقى على صدورنا، سواء كانت مادية أو نفسية». (الهودلي، 2003:66).

وكذلك لجأ الكاتب إلى العلامة الاستباقية للزمن، عندما جاء السرد على لسان عامر، من خلال المونولوج الداخلي، الذي تساءل فيه عن وجود زميليه: نبيل، وإبراهيم، «أين هم الآن؟ بين أيدي المحققين، أم أنهم رموا، كل واحد في زنزانتهم؟ أخشى ما أخشاه: أن يلعبوا بهم لعبتهم الخبيثة.. ويحصلون منهم على معلومات، قد تكون عامة، وغير مفيدة، إلا أنهم يوظفونها عند الآخر.. ويوهونه بأنهم يعرفون كل شيء، ولا داعي للتستر، وإخفاء القصة على حد تعبيرهم». (الهودلي، 2003:13).

لجأ الكاتب أيضاً إلى استثمار علامة الحذف، من أجل إيجاد مادة سيميائية خصبة للفضاء المكاني، وذلك بتجنب الراوي ذكر ألفاظ بعينها، فيعمد إلى استخدام علامة الحذف، موحياً لذلك بالفراغ المنقطع، وذلك إما بعداً عن التكرار، أو تجنباً لذكر أشياء، لخصوصيتها الأمنية، أو الأخلاقية. وهذا التجنب لذكر لحظات سرديّة يعمل على تسريع وتيرة السرد، ويتيح المجال واسعاً أمام المتلقي لتوقع المسكوت عنه، على نحو ما يتجلى في الحوار الذي دار بين عامر وإبراهيم في ساحات السجن: (الهودلي، 2003:159).

همس عامر في أذن إبراهيم:

- متي ستقيّم الأوضاع يا إبراهيم
- متى تشاء .. أنا جاهز
- سمعت من نبيل بالأمس
- بالنسبة لي، أنا كتبت مذكراتي ... كتبت كل ما جرى لي في التحقيق، بأدق التفاصيل
- رائع ، هل بإمكانني ...
- بكل تأكيد.





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي (139-159)

اعتمد السارد سيمياء الحذف، لإيجاد فضاء نصي ينشط خيال المتلقي، ويحدث لديه فاعلية الإثارة والتشويق، لمعرفة المسكوت عنه، ويتيح أمامه إمكانية المشاركة الإبداعية، من خلال ملء الفراغ في المتن الروائي، بما ينسجم مع السياق الدلالي للنص.

وكذلك وظف الراوي سيمياء الحذف والتنقيط، تجنباً لذكر شتائم المحقق، الذي طلب من عامر أن يتكلم، ويجب عن الأسئلة وقال له: «تكلم يا ابن...»، وتعمد السارد توظيف علامة الحذف، لتجنب ذكر ما تأنفه النفس الإنسانية، وتترفع عنه الذائقة الأدبية.

إن استثمار الكاتب لسيمياء الحذف وسع من فضاء العلامة الزمانية، بانفتاحها على فضاءات دلالية وجمالية متعددة، ووسع من أفق التوقع لدى المتلقي؛ إذ «إن للحضور دلالاته دون شك، لكن للغياب أيضاً دلالاته، وإن دلالة الغياب قد تكون أكثر جوهرية، وتجسيدا لبنية الثقافة، من دلالة الحضور» (أبو ديب، 1985:75)، فالغياب الكتابي، أو الصوتي، الناتج عن علامات الحذف، فيه إعمال للفكر، وتنشيط للخيال، يمكن المتلقي من تصور المسكوت عنه، لذلك فإن «الغياب لا يزيد الاكتمال البنائي للنص إلا تأكيداً»، (كريسيفا، 1997:39)، للمعنى وتعميقاً للدلالة.

ثانياً: العلامة المكانية:

للعلامة المكانية أهمية كبرى في الخطاب الروائي، حيث تشغل حيزاً كبيراً في بنيته السردية، وتتميز بوصفها المكوّن الذي يشكل - مع بقية العناصر - فضاء الرواية، فالعلامات الزمانية «لا تمنح دلالتها إلا في المكان، والمكان لا يدرك إلا في سياق الزمان، وبينهما يتنامى العامل المأخوذ من النص الروائي في بعده: المادي والمعنوي»، (النعيمي، 2010:111)، وبذلك يمتد الفضاء، ليشمل مجموع العلامات المكانية، وعلاقتها القائمة مع باقي مكونات العمل الروائي، وقد عمد ميخائيل باختين إلى ربط العلامات الزمانية والمكانية، بعلاقة جدلية في الفضاء الزماني. (ينظر، باختين، 1990:220).

وقد حظيت العلامات المكانية بدور مهم في النص الروائي، وتكمن أهميتها في قدرتها على الربط بين مكونات البناء الروائي، فهي الأرضية المشتركة التي تتحرك فيها الشخصيات، وتتطور الأحداث، وتنمو البنية السردية. ونجد العلامات المكانية متفاعلة تفاعلاً كبيراً مع الشخصيات ونموها، والأحداث وتطورها، متجاوزة بذلك قيمتها كإطار جغرافي، لتدخل في علاقات جدلية متنامية مع الشخصيات والأحداث، ويكون سيمياء المكان وسيلة لرسم طبيعة الشخصيات التي تعيش فيه، والإيحاء بأفكارها وتطلعاتها، ومعاناتها، وبهذا يصبح لسيمياء المكان أبعادها الدلالية والجمالية، التي تحدد طباع الشخصيات، وتكشف عن خباياها.





محمد مصطفى كلاب (139-159)

والعلامات المكانية في رواية: (سناثر العتمة) علامات حقيقية، عايشها الكاتب، بصورة واقعية في سجون الاحتلال، وهي واقعة في نطاق التجربة الفنية، والمكان الروائي «لا يعيش على شكل صور وحسب، بل يعيش في داخل جهازنا العصبي، كمجموعة من ردود الفعل، فلو عدنا إليه - حتى في الظلام- فلسوف نعرف طريقنا إلى داخله، ومثل هذا المكان يبلغ حداً من القوة، ويجعل القارئ يتوقف عن القراءة، ليستعيد ذكرى مكانه الخاص»، (هلسا، 1981:224)، ويفتح المجال واسعاً أمام أفق من التوقعات، حول نهاية موقف من المواقف المتعلقة بالعلامات المكانية، المنتشرة في ثنايا العمل الروائي، التي تنشيط خيال المتلقي، وتحقق لديه فاعلية الإثارة والتشويق.

وقد اتخذت العلامات المكانية في رواية: (سناثر العتمة) أشكالاً عدة، فراها تتسع تارة، وتضيق أخرى، وتفتح تارة، وتغلق أخرى، والمكان إذا كان مغلقاً يرتبط بمعاني الضيق والحرمان، كالزنازنة، والسجن، ومكاتب التحقيق، وإذا اتسع كان رمزاً لانتهاج التحقيق، والخروج من الزنازين، ومكاتب التحقيق، إلى ساحات السجن، التي يفتح فيها السجين على غيره من السجناء، وغالباً ما توجد علاقة بين ضيق المكان وانغلاقه، وبين انفتاح المكان واتساعه.

إن التنوع الحاصل في العلامات المكانية، بين سجن عسقلان، والمسكوبية، ومجدو، والزنازين، والمسالخ، وأماكن الشبح، والتحقيق، (ينظر، الهودلي، 2003:130 وما بعدها)، يحيل قطعاً إلى تعدد أساليب التحقيق، وتنوعها، مما يضيف على سيمياء العلامة المكانية الحيوية والتنوع، ويعمل على تحريكها في أكثر من اتجاه، وعلى أكثر من مستوى، ومن ثم تبئرها في علامة مكانية واحدة هي الزنازنة، فضلاً عن الحركة، والتنوع، والحيوية التي تشكلت من جراء العلاقات المتشابكة، بين الأمكنة المختلفة التي تعمل على تشكيل فضاءات سيميائية متباينة، وفق تباين أنساقها الثقافية والدلالية.

فالسجن مكان مغلق بزنازينه، وغرف تحقيقه، ومسالخ تعذيبه، وهو كمكان لا يتغير، ولكن علاقات المعتقلين به هي التي تتغير، ويظل السجن بكل مكوناته المادية والمعنوية، وتتغلب إرادة السجين على إرادة السجان، ويتحول السجن من مكان للقهر والمعاناة والموت، إلى قلعة من قلاع الصمود والمقاومة، ومدرسة للتثوير والتثوير. وهذه المعاني تؤكد لها صورة السجن في الرواية، التي ظلت في بعدها الواقعي، حيث ذكرت أماكن السجون، وأسماءها الحقيقية: (مجدو، وعسقلان، والمسكوبية)، وذكرت الألفاظ المتداولة داخل السجون: (عصفور، والشبح، والبرش، والفورة)، وبذلك «أصبح المكان يمنح ملامحه للإنسان من جهة، وللغة من جهة أخرى»، (ياغي، 1999:111)، وبات للسجون علاماتها السيميائية الخاصة التي تعبر عن بيئتها، فتكشف عن مجريات الأحداث، وتطور المواقف داخل السجن.





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودي (139-159)

وسيمياء المكان لم تكن واحدة عند كل الأشخاص، فقد يكون المكان للراحة الجسدية، والنفسية، يشعر فيه صاحبه بالطمأنينة والاستقرار، كما هو الحال عند العصافير، وقد يكون المكان للمعاناة كما هو في المسلخ، وقد يستثمره المعتقل في الذكر والتأمل، كما فعل عامر، (ينظر، الهودي، 12-13:2003)، وبذلك تتباين نظرة الشخصيات للمكان حسب مستوياتها الثقافية، وحالاتها الانفعالية، مما يجعلها ترى المكان الواحد بأكثر من رؤية، وهذا ما حدث مع عامر في أماكن اعتقاله، والتحقيق معه.

وقد وظف الكاتب اللون، ليس للتعبير عن الشكل الخارجي للمكان، إنما للإيحاء بما هو داخلي يعتلج في نفوس شخصه، كما هو واضح في حديث عامر لنبييل، عن مشهد متكرر معه في التحقيق، «استلموني منذ لحظة الاعتقال الأولى، تكالبوا عليّ ليل نهار، كانت الأيام الأولى عصبية، إذ حرمت فيها من النوم.. تواصل الليل والنهار، وهم يتناوبون عليّ، بهدف إرهاقي، وإبصالي إلى حالة من الانهيار النفسي، تمكنهم من اقتناص بعض الكلمات.. وكانوا أحياناً يجتمعون دفعة واحدة... يطلقون تهديداتهم، ويتوعدونني بالتعذيب العسكري، وإخراج كل ما لديهم من عنف، وعذاب. ثم بعد ذلك أخذوا يتركونني وحدي في الزنزانة السوداء، لأيام طويلة، وأنا أنتظر، وأترقب خطوتهم القادمة، إهمال متعمد يحرق أعصابي، ويضغط على أنفاسي». (الهودي، 151:2003).

تبرز قدرة الكاتب في استثمار سيمياء اللون الأسود، لجعل ما هو داخلي في نفس عامر ينعكس على ما هو خارجي في الزنزانة، ويعني هذا أن عامراً عاش معاناة التحقيق الجسدية والنفسية، فجاء اللون الأسود، ليكون تجسيداً أساسياً لتلك المعاناة، التي عاشها عامر في التحقيق، فاللون الأسود ارتبط بحجم المعاناة، التي يعيشها عامر خلف القضبان، وأوحى بسوداوية الواقع الاحتلالي، والكاتب بذلك لم يخرج باللون الأسود عن دلالاته التراثية المعروفة، فكان تأكيداً وتواصلاً لما هو متوارث ومعروف.

وإذا كان السجنان يحرص كل الحرص، على نشر اللون الأسود في عقول المعتقلين ووجدانهم، فإن المعتقلين يقاومون اللون الأسود بكل إيجاباته الحزينة، والكئيبة، وذلك من خلال استبداله باللون الأخضر، الذي يثير لدى إبراهيم جملة من الذكريات، فيقول: «كانت أواسط نيسان أجمل أيام السنة، حوّل هذا السجن.. الأرض تخرج كسوتها الخضراء، والبرتقال تبتسم براعمه بزهورها، التي تقيم حفلات زفافها، وتستعد لولادة أجنحتها.. ونسيم البحر القريب يداعب الكائنات، وبيث شجون البحر بأعذب الألحان.. والأسرى القابعون خلف الحديد، وقهر السجنان، لا ينالهم من كل هذا إلا أن يسرح أحدهم بخياله، أو يشنّف أنفه لبعض الأريج المتسلل». (الهودي، 158-159:2003).





محمد مصطفى كلاب (139-159)

فاللون الأخضر جاء حاملاً لدلالة واحدة، هي دلالة العطاء، والخصب، والنماء، ومجسداً لسيمياء المشهد بعيداً عن الزنزانة السوداء، وموحياً بإرادة الحياة، والإصرار على الأمل، رغم سوداوية الواقع داخل السجون. ويؤكد الكاتب على رسوخ اللون الأخضر في وجدان المعتقل، وسيطرته على أحاسيسه، بتعزيزه له بألوان زهر البرتقال وأريجيه، ونسيم البحر، الذي يتسلل عبر قضبان السجن، ليثير طائفة من الذكريات لدى المعتقلين، ويكشف عن التحول النفسي لديهم، فقد جاء اللون الأخضر، الذي يوحي بالحياة ويبعث الأمل في وجدان المعتقلين، ليقابل اللون الأسود لون الحزن، والكآبة، والتشاؤم، ويواجه الموت الذي أراده المحتل أن يتسلل إلى قلوب المعتقلين.

فالمستويات السيميائية للتوظيف اللوني للوحة الأحداث في السجون الصهيونية، أجاد الكاتب توظيف دلالاتها، واستثمار طاقاتها، بما يتناسب مع طبيعة المكان، والمواقف، والأحداث التي تجري فيه، وينسجم مع طبيعة الأفكار، والعواطف، والانفعالات التي يريد التعبير عنها، والتأثير في المتلقي من خلال تكثيف المعنى، وإثارة الإحياء، لأن دوال الألوان- غالباً- تؤثر تأثيراً بالغاً، في إيجاد فضاء إيحائي يوازي النص السردي القائم بالفعل؛ إذ هي تحيل بالضرورة على مدلولات وجدانية غائبة عن النص، وهذه الإحالة تقتضي التحرك في الفضاء النصي للرواية، للبحث عن آفاقها، واستدعائها إلى مجال التلقي، ليكتمل وجود النص بالفعل، وبالقوة على صعيد واحد. (ينظر، عبد المطلب، 154: 1995)، ومتابعة مثل هذه الإحالات يحتاج قدراً واسعاً من الرؤية، والإدراك، لاستيعاب الأفق الدلالية، والإشعاعية، والجمالية، التي تفتح الفضاء النصي على حقول سيميائية واسعة.

ويضفي الكاتب على المكان سيمياء الرائحة، التي تتبدل من زنزانة إلى أخرى، ومن معتقل إلى آخر، في رحلة طويلة لا تعرف الاستقرار. فالمكان تارة معبق برائحة نتنة، كما هو في الزنزانة التي وجد عامر نفسه فيها، بعد جولات من التحقيق المتواصل، استمرت أياماً دون نوم، فهي ضيقة، شديدة الظلام، رائحتها نتنة، بسبب الرطوبة، ووجود سطلين فيها، الأول: للشرب، والثاني: للبول، تنبعث منه رائحة كريهة، إضافة إلى رائحة الحمام الذي دفع الشرطي عامراً إليه، وطلب منه- خلال خمس دقائق- أن يقضي حاجته، ويستحم، فوجد عامر الحمام فيه صابون، ودش ماء فاتر، ودورة مياه فاقت نجاستها بسخاء، وقد أثار رائحة العفنة الكريهة الحساسة في صدر عامر. (ينظر، الهودلي، 76-77: 2003).

وتتبدل رائحة المكان خارج الزنازين، حيث نجدها قد تغيرت في الساحة التي تحيط بها أقسام السجن، على ارتفاع طابقين شاهقين من كل جانب، وسطح الساحة مسقوف بقضبان الحديد سقفاً محكماً، يعيق حركة الهواء المتسلل، حيث كان أريج حقول البرتقال يصير على ولوج هذه الساحة، لينعش الصدور المكبوتة. وكذلك نسيم البحر القريب يداعب





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي (139-159)

الكائنات، وبيت شجون البحر بأعذب الألحان. والأسرى القابعون خلف القضبان: ينعش بعض الأريج المتسلل صدورهم، ويطلق العنان لخيالهم، ليعيشوا ذاكرة المكان الفلسطيني خارج سجون الاحتلال. (ينظر، الهودلي، 2003:158).

ونلمس في اللوحة التي رسمها الكاتب للمكان سيمياء الصوت، التي انتشرت في جنباته، وسيطرت عليه أصوات السجانين، والمحققين، والعصافير، وصراخ المعتقلين، وأناثهم، وأحاديثهم، وضحكات عامر، وغناؤه مع نبيل، وصوت أبواب الزنازين، ومكاتب التحقيق، وخشخشة المفاتيح، وصوت جلبة عجلات السيارات. (ينظر، الهودلي، 2003:8 وما بعدها).

وفي محاولة من المحقق: (شلومو) للتأثير في صمود عامر أسمعه صوت إيلان وهو يحقق مع فتاة فلسطينية، حول علاقتها بالأعمال العسكرية، وبصوت عالٍ يهددها المحقق، على مسامع عامر، بقوله: «أترين ماذا سنفعل معك إن لم تقولي كل ما عندك؟ أنتسين أنك بنت، وقد أصبحت بين أيدينا..؟ بإمكاننا أن نفعّل ما نشاء»، (الهودلي، 2003:81)، وعامر يسمع التحقيق مع الفتاة في المكتب المجاور، ولكنه يشك في صحة ما سمع، ويعده من قبيل الحرب النفسية الموجهة ضده، ولا يستبعد هذا العمل المنحط عن المحقق.

ثالثاً: العلامة الجسدية:

تمثل العلامة الجسدية مثيراً سيميائياً، يحقق فاعلية التواصل، ويحمل في داخله أنساقاً من العلامات السيميائية، التي تشكل لغة تواصلية قائمة بذاتها، تفوق قوى التواصل الموجودة في العلامات اللسانية، ويأتي هذا التفوق للعلامة، من كونها أكثر قدرة على التعبير عن الحالات الانفعالية، وأصح في بيان ما تخفيه الذات، أو ما تريد العلامة الجسدية أن توحى به للآخرين، لأنها تختزن مجموعة من العلامات، والإشارات المشفرة، التي يتغير معناها بحسب تغير علامات الجسد، وما توحى به من مثيرات سيميائية، تتجدد حسب السياق التواصلية الذي توضع فيه. (ينظر، محمود، 2014:147، كذلك، راغب، 1998:54).

وتشكل العلامات الجسدية مدخلاً للولوج في أغوار الذات، لأن العلامات الجسدية وسائل تعبيرية، يستثمرها الإنسان، من أجل التعبير عن مواقفه الفكرية، وحالاته الانفعالية، ويتجلى ذلك في تعابير الوجه، ولون البشرة، والعينين، والأسنان، والشعر، وحركات اليدين، وشكل الجلوس، والوقوف، والمشى، والطول، والقصر، والبدانة، والنحافة، ونبرة الصوت، وغير ذلك من العلامات الجسدية، التي يمكن أن تكشف عن سيمياء العلامات الجسدية، التي تثري النص، وتمنحه فضاءً دلاليًا واسعاً.





محمد مصطفى كلاب (139-159)

ولكي يكون المبدع أكثر استثماراً للعلامة الجسدية، والمتلقي أعمق إدراكاً لفاعليتها، لابد أن يُنظر إليها على أنها شفرات سيميائية، تمتلك الثراء الدلالي، والفضاء الإيحائي، وأن يجيد المبدع توظيفها، داخل العملية الإبداعية، مما يدعو إلى «التخلي عن التقاليد، واكتشاف شفرات كانت قد تأصلت، إلى حد أننا لم نعد نراها، بل نظن أننا نرى من خلال شفافيته الواقع نفسه. ولا يكون هذا الإجراء مهماً وقوياً في مكان، مثلما يكون في إدراكنا لأجسادنا، فنحن نظن أننا نعرف أنفسنا مباشرة، ولكن كلاً من الـ (نحن) التي نعرف، والـ (نفس) التي نعرف، تتخللها الشفرات بعمق، أي أنها مشفرات ثقافياً». (شولز، 1994:217).

وقد شكّلت العلامة الجسدية ملمحاً بارزاً في رواية: (ستائر العتمة)، مما يستدعي التوقف عندها، وبيان تجلياتها السيميائية، فهي لغة إيمائية، ونظام من العلامات منتج للدلالة، ومنشئ لشفرات تواصلية تعكس اختلافات ثقافية، وتحمل في طياتها رموزاً متشابهة الشكل، مختلفة الدلالة، «فالجسد بمجرد ما تمتلكه اللغة والصورة، يكف عن أن يكون جسداً واقعياً، ليغدو جسداً ثقافياً بالدرجة الأولى. ومتي ما مس الوصف الجسد، فإنه يتعامل معه انطلاقاً من مخزونه الفكري، وذاكرة اللغة، وقيمتها وأخلاقها». (الزاهي، 1998:113-112).

وقد لجأ الكاتب في سرده، إلى توظيف العلامات السيميائية للغة الجسد التعبيرية، لتعميق المعاني في وجدان المتلقي، ومنحها بعداً إيحائياً واسعاً، يكشف التحولات الجسدية التي تحدث للمعتقل، وتجلي ذلك في تحول العلامات الجسدية، التي طرأت على عامر ونبيل، بعد مرور اثنين وعشرين يوماً من الاعتقال والتعذيب، حيث التقيا في زنزانه واحدة، و«وقع الاثنان في عناق حار، لم يستطع عامر التخفيف من حدته.. رأى كل منهما نفسه في الآخر، بدا نبيل لعامر منهكاً، شاحباً.. علّمت الأيام السابقة على وجهه، وكأنها سنين طويلة من سني الشيخوخة، كسا الصفار الباهت وجهه الأبيض، وبدت عليه علامات الذل والانكسار.. مال رأسه قليلاً باتجاه صدره، وكانت عيناه لا تقوى على إمعان النظر، في هذا الظلام الصاخب. وبدا عامر لنبيل وقد أصابه التعب والإرهاق، إلا أن عينيه ما زالتا تلمع فيهما الإرادة القوية، والتصميم الحاد.. سمرة وجهه غابت في الظلام.. كان مرفوع الرأس، يحدث نبيل بكل ما أوتي من قوة، وكأنه يحاول قراءة ما يجول في صدره.. كانت راحة يده التي تمسك بكتف نبيل بكل حب واشتياق». (الهودلي، 2003:89).

كشفت العلامات الجسدية في المشهد السردي، عمق معاناة عامر ونبيل، تحت وطأة الاعتقال، وقسوة التحقيق، ورسمت ملامح المعاناة من خلال العلامات الجسدية التي بدت عليهما، في: (النحافة، والإنهاك، وشحوب الوجه، والشيخوخة، واصفرار الوجه وبياضه، وميلان الرأس ورفع، ولمعان العينين، وراحة يديه)، وما توحى به هذه العلامات من حمولات سيميائية، تبرز صمود المعتقل، وتحديه للسلطان.





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودي (139-159)

وقد عمد الكاتب إلى الكشف عن العلامات المادية، والنفسية، والاجتماعية لشخصه، لإضفاء ملامح حقيقية عليها، وإبراز تلقائية العلامة. وقد جسد البعد المادي الشكلي لشخصية عامر، من خلال وصفها يوم خروجها من السجن، في الحبسة الأولى «كانت أياماً عصيبة من العنف والشبح، سبعون يوماً، خرجتُ منها بهيكل عظمي، نحل عنه الشحم واللحم، وقد اشتدت عليَّ آلام ظهري، وتخلخلت فقرات رقبتي من أثر الشبح.. أما هذه المرة: فهذا أنت يا عامر تضع رجلاً على رجل، وترتع وحدك في هذه الزنزانة..» (الهودي، 2003:14). ولم يقف الوصف عند معاناة عامر داخل السجن، بل تجاوز ذلك، ليتحدث عن صموده، وتحديه للمحقق وأساليبه، فصور لنا كيف «تقلص وجه عامر، وقرر أن يعلن التحدي.. قرر أن ينتقل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم»، (الهودي، 2003:37). وهذا فيه إشارة إلى صلابته عامر وقوته، وإضاءة على قدراته في التغلب على المحقق وأساليبه، التي اكتسبها من خبراته في جولات التحقيق.

وامتد وصف الكاتب للبعد المادي الشكلي للعلامة الجسدية، إلى شخصية العصفور، الذي وصف بأنه «كان أشعث أغبر، تبدو عليه آثار التعذيب.. تستطيع أن تقدر أن عمره في الزنازين يزيد على العشرين يوماً يتقطع وجهه ألماً وحنناً، رغم أنه في ريعان شبابه، إلا أنه بدا كهلاً ناهز الأربعين»، (الهودي، 2003:14). ونحن نعلم ما لهذا البعد المادي الشكلي لشخصية العصفور، من إشارات إلى تصنعه التعذيب والمعاناة، للتأثير في نفسية السجين، وإحداث نوع من الاطمئنان، ليوقعه في فخ الاعتراف.

وكذلك وصف الكاتب البعد المادي الشكلي، للعلامات الجسدية لشخصية المحقق: (كابتن داني)، فتحدث عن ابتسامته الصفراء، التي نشرها على وجهه الأبرص، وأنفه المدبب، وعيونه الخضراء، وصلعته التي توحى بتجاوزه سن الأربعين، وطوله، وحناقته، إضافة إلى هدوئه، وأسلوبه الناعم في المعاملة، (ينظر، الهودي، 2003:36)، ونحن ندرك أهمية الإشارة إلى الابتسامة، ووصفها بالصفراء، والإشارة إلى أسلوبه بأنه هادئ، وناعم، ذلك للإيحاء بقدراته في كسب نفسية المعتقل، واستدراجه، للاعتراف بهدوء، بعيداً عن أساليب التحقيق القديمة، التي كانت تنتزع الاعتراف من المعتقل بالعنف.

وأما البعد النفسي للعلامة الجسدية، فقد وظفه الكاتب، لإضفاء صفة الصمود والتحدي، على شخصية عامر، الذي ابتعد عن الثرثرة مع العصفور، الذي اقتحم عليه خلوته، واكتفى بمراقبته، وتفسير تصرفاته، والتزم الصمت، حرصاً وسلامة، رغم ثقل العزلة وقساوتها، فقد تغلب عامر عليها بالصلاة، والتسبيح، والذكر، الذي يزيد من ثباته، وثقته بنفسه، وبالتالي: تغلبت إرادة السجين على السجان، وهذا ما أبداه عامر بتحديه للسجانين، بقوله: «يا لكم من أغبياء.. إنها خلوة أخلو بها مع ربي.. أنتقل من فكرة إلى أخرى، وأقلب دفاتري القديمة والحديثة.. صدقاً، الزنزانة كانت قديماً خانقة للنفس والروح.. يأتيون





محمد مصطفى كلاب (159-139)

بك من بعيد، حيث فضاء الحرية الواسع، ويحشرونك بين جدران ضاغطة وخائفة.. هذا قديماً، أما اليوم: فهي متعة روحية، أنفع بها قلبي، وأدخل بها ميدان فكري، وهاهم يفصلونها حسبما أريد.. فحتى يتسنى لي تركيز الفكرة، وتجميع مشاعر القلب، لأبذ من غلق النوافذ، فلا يشرد البصر بعيداً، ولا يتشتت الذهن.. أربعة جدران دون أية نافذة.. استعاضوا عنها بمروحة في السقف، يشغلونها حسب أهوائهم الفاسدة.. ثم تجد في إحدى زواياه مقعداً لقضاء الحاجة، مع سطل ماء». (الهودلي، 2003:13-12).

ولعل العلامات النفسية لشخصية المعتقل، التي حرص الكاتب على إبرازها، والمتمثلة في الصمت، وعدم الثرثرة، والاستفادة من العزل الانفرادي: بالذكر، والصلاة، والتسبيح، والتأمل، والتفكير، والمراجعة، وإبداء القوة في اتخاذ قرار المواجهة، والانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم. وهذه العلامات النفسية هي مشكلات شخصية البطل، الذي لا يعرف الانكسار، ولا يعرف طريق التردد، ولا تحركه رداد الفعل العشوائية، بل ينطلق من تفكير، ووعي، وقناعة.

وقد كشف الكاتب عن الأبعاد النفسية لشخصه، من خلال سيمياء اللون، التي تجلت في لغة الجسد التعبيرية، حيث وصفت ابتسامات المحققين، وقهقهاتهم التي بدت من خلالها نواجزهم، وأنيابهم، بأنها صفراء، (ينظر، الهودلي، 2003:55-36)، وهذا التوظيف اللوني يحمل بعداً سيميائياً كنائياً، دالاً على الخبث، والحد، والموت، ينسجم مع سواد وجه المحقق، الذي وصف بالشيطان الأسود، (ينظر، الهودلي، 2003:98-96)، ويتعلق بسياق المعاناة والموت الذي تحمله أساليب التحقيق للمعتقل.

وإذا كانت لغة الجسد للمحققين الصهاينة، المتمثلة في الابتسامات في وجه المعتقل، قد وصفت بالأصفرار الذي يشي بالمعاناة والموت، فإن لغة الجسد للمعتقلين، المتمثلة بابتسامة عامر في وجه نبيل، كانت حانية، خفت من آلام نبيل، (ينظر، الهودلي، 2003:148)، وقد أسهم سيمياء اللون للغة الجسد في منح المشاهد السردية أبعاداً درامية، عمقت من الحمولات الدلالية للنص، ومنحت المتلقي صوراً مؤلمة لأساليب التحقيق.





الخاتمة:

حاولتُ من خلال دراسة رواية: (ستائر العتمة) بآليات المنهج الوصفي التحليلي الإجرائية، أن أكشف عن بعض جماليات الخطاب الروائي، من خلال فك شفرة العلامات السيميائية، المتمثلة في: العلامات الزمانية، والمكانية، والجسدية، وتوصلت إلى بعض النتائج، أجملها فيما يلي:

- شكلت العلامة الزمانية ملمحاً بارزاً في رواية: (ستائر العتمة)، حيث تنقلت الرواية عبر علامات زمانية مختلفة من تاريخ النضال الفلسطيني، ومن الجدير بالذكر: أن العلامات الزمانية لها خصوصية، وحضور في رواية المعتقل، بل تكاد ترتب على قمة السرد الروائي، مشيرة إلى أهمية هذه العلامات، ممثلة بالعنوان، وهو يسير في ثنائية غير متوازنة، يطغى فيها الحاضر على الماضي، وللحاضر فيها بعدان: أحدهما قبل أو سلو، وثانيهما بعد أو سلو.
- عبرت العلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة) عن تجربة نضالية، عاشها الكاتب في أقبية التحقيق الصهيوني، مما أدى إلى تداخل الممارسة الإبداعية مع التجارب السياسية في وجدان الكاتب، بشكل يصعب فيه فصل السياسة عن الأدب، مما حول عمله الروائي إلى تجربة فنية صادقة، تنكئ على الواقع المقاوم، وتحافظ على الخصوصية السيميائية للنص الروائي.
- كشفت العلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة) عن الانفتاح الحاصل بين الأجناس الأدبية والأنواع الفنية، وذلك باستثمار العمل الروائي للتقانات السردية، والدرامية، والتصويرية، وتعدد الأصوات، والألوان، والروائح، وتداخلها، وتنوع الأساليب وتباينها، والتي تجلت بفاعلية في المثيرات السيميائية المنتشرة في ثنايا الرواية. وهذه الخاصية الانفتاحية للعلامة الروائية، جعلت منها علامة تتسم بالتوالد الدلالي، والثراء الإيحائي.
- أجاد الكاتب اختيار العلامات المكانية، والزمانية، التي تتناسب مع مستويات العلامات الجسدية، والنفسية، والاجتماعية لشخصه، ونجح في استثمار تقانات السرد القصصي، لإبراز جماليات العلامات السيميائية، التي كشفت بشكل فاعل عن ترسيخ ثقافة الصمود والمقاومة، لذلك نجد التفاعل بين العلامات الزمانية، والمكانية، والجسدية، مجسداً لقوة العلاقة القائمة بينها على التأثير والتأثر المتبادل، الذي يبرز التطور الدلالي للعلامات السيميائية، في النص الروائي.





محمد مصطفى كلاب (139-159)

- إن حسن استثمار الكاتب للعلامات السيميائية المعتمدة على: الحركة، والصوت، واللون، والرائحة، وتوظيفها توظيفاً فنياً في تشكيله للبناء السردي، أبرز عمق امتلاك الكاتب لأدوات رسم عناصر البناء الروائي، وحسن توظيفه لها، وكشف عن قوة تغلغله في أمكنته، حيث وصف مكوناتها، وأضاء جوانبها، وأثرى شخصها وأحداثها، مما مكنه من إيجاد الطاقات الإيحائية، والجمالية، والبنائية في المتن الروائي، التي عززت من فاعلية تلقي المثيرات السيميائية.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
أبو ديب، كمال، (1985): الأدب والأيدولوجيا، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
أيوب، محمد، (2001): الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ط1، القاهرة، دار سندباد للنشر والتوزيع.
الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (1964): تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط)، القاهرة، دار القومية العربية للطباعة.
الأندلسي، ابن عبد ربه (1979): ديوان ابن عبد ربه، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.
البخاري، محمد ابن اسماعيل (1422هـ): صحيح الإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، بيروت، دار طوق النجاة.
البستاني، محمد بن حبان الدارمي (1993): صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة.
باشلار، غاستون، (1988): جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط2، الجزائر، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.
باختين، ميخائيل، (1990): أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق (د.ط)، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
الجاحظ، عمر بن بحر، (2008): البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، (د.ط)، بيروت، المكتبة العصرية.
جينيت، جيرار، (1997): خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرين، ط2، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
حمودة، عبد العزيز، (1978): المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 232.
دي سوسير، فرناند، (1985): دروس في الألسنية العامة، تعريب: صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجيبة، (د.ط)، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب.
داسكال، مارسيلو، (1987): الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: حميد الحمداني وآخرين، (د.ط)، الدار البيضاء، أفريقيا للنشر.
راغب، نبيل، (1998): لغة التعبير بالجسد في الفن والتجارة والسياسة، (د.ط)، القاهرة، دار غريب.
الزاهي، فريد، (1998): الجسد والاستراتيجية المظهرية في الثقافة العربية الإسلامية، فلسطين، مجلة الكرمل، العدد 54.





العلامة والرواية: دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي (139-159)

- السمري، إبراهيم عبد العزيز، (2010): اتجاهات النقد في القرن العشرين، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية.
شولز، روبرت، (1994): السيميائية والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- علي، عواد، (1996): شفرات الجسد، جدلية الحضور والغياب في المسرح، ط1، عمان، دار أزمنة.
عبد المطلب، محمد، (1995): قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، (د.ب)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- فضل، صلاح، (2005): مناهج النقد المعاصر، ط4، القاهرة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي.
كريستيفا، جوليا، (1991): علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط2، الدار البيضاء، دار توبقال.
مبارك، حنون، (1987): دروس في السيميائيات، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- محمود، محمد حسين، (2014): شعرية الجسد، عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، فحص أثر الجسد في هذين العصرين، ط1، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- مرتاض، عبد الملك، (1998): في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مندولا، (1997): الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، (د.ط)، بيروت، دار صادر.
- النعمي، فيصل غازي، (2010): العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد، ط1، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- هلسا، غالب، (1981): المكان في الرواية العربية، ضمن كتاب الرواية العربية واقع وآفاق، ط1، بيروت، دار ابن رشيد للطباعة والنشر.
- الهودلي، وليد، (2003): ستائر العتمة، ط1، فلسطين، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي.
- هينكل، روجرب، (1995): قراءة الرواية، مدخل إلى تقنيات التفسير، ترجمة وتقديم: صلاح رزق، ط1، القاهرة، دار الآداب.
- وورد، ديفيد، (1999): الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكو، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- باغي، عبد الرحمن، (1999): في النقد التطبيقي مع روايات فلسطينية، ط1، عمان، دار الشروق.





محمد مصطفى كلاب (159-139)

The Sign and the Novel: A Semiotic Study of Walid Al-Hodali's Novel Curtains of Darkness

Mohammed Mustafa Kullab

*College of Arts - The Islamic University (Gaza)
Gaza - Palestine*

Abstract:

The paper employs a semiotic analysis of the sign in the novel *Curtains of Darkness* in order to determine the nature of the writer's use of signs and their role in the formation of the narrative space, as well as the writer's ability to invest semiotic signs in the production of a narrative that is capable of expressing his experiences and create semantic and aesthetic stimuli that increase the openness of the text on wide interpretive spaces.

The researcher used the descriptive analytical approach to study semiotic space of the narrative sign in the novel *Curtains of Darkness* by examining the concept of the sign, the parallel sign, the temporal sign, the spatial sign, and the physical sign.

Keywords: sign, semiotics, Time and space, body language, Al-Hodali.

